

السرد كأداة للمقاومة في الرواية الأفريقية: استراتيجيات تفكيك الخطاب الكولونيالي وإعادة بناء الهوية

Narrative as a tool of resistance in African novels: Strategies for dismantling colonial discourse and rebuilding identity

أ.د. بلعباسي محمد

belabassi1973@hotmail.fr

جامعة الشلف / الجزائر

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/04	تاريخ الإرسال: 2025/10/13
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص

تبحث هذه الدراسة في الوظيفة المقاومة للسرد في الرواية الأفريقية ما بعد الكولونيالية، بوصفها أداة استراتيجية لمواجهة الهيمنة الثقافية والسياسية التي فرضها الاستعمار. انطلاقاً من فرضية أن الرواية الأفريقية لم تكن مجرد فعل إبداعي، بل مشروعاً وجودياً ومعرفياً، يحلل هذا المقال الآليات السردية التي وظفها الروائيون الأفارقة لتفكيك الخطاب الكولونيالي الذي صوّر أفريقيا كـ"آخر" متوحش وبلا تاريخ. يستند البحث إلى الإطار النظري لدراسات ما بعد الكولونيالية، مستفيداً من مفاهيم إدوارد سعيد حول "الاستشراق"، وفرانز فانون حول "الأدب القومي"، وهومي بابا حول "التهجين والمحاكاة الساخرة". يتناول المقال بالتحليل أربع استراتيجيات سردية أساسية للمقاومة: أولاً، استعادة التاريخ المنهوب وتقديم "السرد المضاد" كما يتجلى في رواية "الأشياء تتداعى" لتشيبيوا أتشيبي. ثانياً، المقاومة اللغوية وتحدي لغة المستعمر، من خلال استعراض رؤيتي كل من أتشيبي في "تطويع" الإنجليزية ونغوي واثونغو في

الدعوة للكتابة باللغات الأفريقية. ثالثاً، إحياء الموروث الثقافي الشفاهي ودمجه في بنية السرد الروائي لتأكيد الأصالة المعرفية. رابعاً، تشريح الذات المستعمرة وفصح أمراضها النفسية كما في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح. تخلص الدراسة إلى أن السرد في الرواية الأفريقية تحوّل من مجرد وسيلة للحكي إلى سلاح فعال في معركة استعادة الذاكرة، وتأكيد الهوية، وتخيّل مستقبل متحرر من أغلال الماضي الاستعماري.

كلمات مفتاحية: الرواية الأفريقية، أدب المقاومة، ما بعد الكولونيالية، السرد المضاد، الهوية، تشينوا أتشيبي، نغوي وا ثيونغو، تفكيك الخطاب.

Abstract

This study investigates the function of narrative as a tool of resistance in the postcolonial African novel, viewing it as a strategic instrument to counter the cultural and political hegemony imposed by colonialism. Premised on the hypothesis that the African novel was not merely a creative act but an existential and epistemological project, this article analyzes the narrative mechanisms employed by African novelists to deconstruct the colonial discourse that depicted Africa as a savage, ahistorical "Other." The research draws upon the theoretical framework of postcolonial studies, utilizing concepts from Edward Said on "Orientalism," Frantz Fanon on "national literature," and Homi Bhabha on "hybridity and mimicry." The article examines four primary narrative strategies of resistance: first, the reclaiming of plundered history and the presentation of a "counter-narrative," as exemplified in Chinua Achebe's *Things Fall Apart*. Second, linguistic resistance and the challenge to the colonizer's language, explored through the contrasting visions of Achebe's "appropriation" of English and Ngũgĩ wa Thiong'o's advocacy for writing in African languages. Third, the revival of oral cultural heritage and its integration into the novel's narrative structure to assert epistemological authenticity. Fourth, the dissection of the colonized self and the exposure of its psychological pathologies, as in Tayeb Salih's *Season of Migration to the North*. The study concludes that narrative in the African novel transformed from a mere storytelling medium

into an effective weapon in the battle to reclaim memory, affirm identity, and imagine a future liberated from the shackles of the colonial past.

Keywords: African Novel, Resistance Literature, Postcolonialism, Counter-Narrative, Identity, Chinua Achebe, Ngũgĩ wa Thiong'o, Discourse Deconstruction.

مقدمة

لم تكن الرواية الأفريقية، التي بزغ فجرها في خضم الصراع من أجل الاستقلال في منتصف القرن العشرين، مجرد نوع أدبي مستورد أو محاكاة بريئة للشكل الروائي الغربي. بل كانت، منذ ولادتها، فعل مقاومة بامتياز؛ صرخة وجودية في وجه قوة استعمارية لم تكتفِ باحتلال الأرض ونهب الثروات، بل سعت إلى احتلال الوعي ومحو الذاكرة. لقد أدرك الجيل الأول من الروائيين الأفارقة أن المعركة الأهم والأطول ليست تلك التي تُخاض بالبندقية، بل تلك التي تُخاض بالكلمة، وأن السيطرة على السرد هي جوهر السيطرة على الواقع والمستقبل.

فالخطاب الكولونيالي، كما حلّله مفكرون مثل إدوارد سعيد، بنى شرعيته على أساس سردية متكاملة، تصور أفريقيا على أنها "قارة الظلام"، أرض الفوضى والبدائية، وشعوبها كائنات بلا تاريخ أو ثقافة تستحق الذكر، تنتظر اليد "الحضارية" للمستعمر الأبيض لتنتشلها من تخلفها. وقد تجسدت هذه السردية في الأدب الأوروبي، حيث تم اختزال الأفريقي إلى صورة كاريكاتورية تخدم أغراض التبشير الإمبريالي. في هذا السياق، جاءت الرواية الأفريقية لتكون "السرد المضاد" (Counter-Narrative). لقد كانت مهمتها، كما عبر عن ذلك الروائي النيجيري تشينوا أتشيبي، هي "إعادة كتابة التاريخ" من وجهة نظر الأسد، بعد أن ظلت قصص الصيد تمجد الصياد دائماً. يقول أتشيبي في هذا الصدد: "إن الكاتب لا

يمكن أن يتوقع أن يُعفى من شؤون عصره. فبالنسبة للكاتب الأفريقي الذي عاش الحقبة الاستعمارية، كان عليه أن يعالج التجربة كمسألة تاريخية. (1)

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف الكيفية التي تحول بها "السرد" في الرواية الأفريقية إلى أداة فعالة للمقاومة. وسنقوم بذلك من خلال تحليل الاستراتيجيات السردية التي استخدمها الروائيون الأفارقة لتفكيك الخطاب الكولونيالي وإعادة بناء هوية أفريقية جريئة ولكنها صامدة. سنعتمد في تحليلنا على الإطار النظري لدراسات ما بعد الكولونيالية، مع التركيز على نماذج روائية تأسيسية لتشينوا أتشيبي، ونغوي وا ثيونغو، والطيب صالح، وغيرهم، لنوضح كيف أصبحت الرواية ساحة معركة رمزية، تُستعاد فيها الأوطان المسلوقة سردياً قبل استعادتها جغرافياً.

ما بعد الكولونيالية وقوة السرد

لفهم عمق الوظيفة المقاومة للرواية الأفريقية، لا بد من تأطيرها ضمن الحقل النقدي لدراسات ما بعد الكولونيالية، الذي وُقِر الأدوات المفاهيمية لتحليل العلاقة المعقدة بين السلطة والثقافة، بين المستعمر والمستعمر.

1. إدوارد سعيد وتفكيك السردية الإمبريالية:

في كتابه المؤسس "الاستشراق"، كشف إدوارد سعيد كيف أن المعرفة التي أنتجها الغرب عن "الشرق" (بما فيه أفريقيا) لم تكن معرفة موضوعية بريئة، بل كانت نظاماً من التمثيل يخدم أهداف الهيمنة الإمبريالية. لقد تم بناء "الشرقي" كـ"آخر" سلبي: غير عقلاني، شهواني، متخلف، في مقابل غربي عقلاني، منضبط، ومتحضر. يقول سعيد: "الاستشراق هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه" (2). هذه الهيمنة لم تكن عسكرية فقط، بل كانت معرفية وسردية بالأساس. الرواية، كجنس أدبي

مركزي في الثقافة الأوروبية، لعبت دوراً حاسماً في ترسيخ هذه الصورة النمطية. من هنا، فإن أي فعل مقاوم لا بد أن يبدأ بتحدي هذه السرديات وتفكيكها، وهذا بالضبط ما فعلته الرواية الأفريقية.

2. فرانس فانون وسيكولوجية التحرر:

قدم الطبيب والمفكر المارتينيكي فرانس فانون في كتابه "معذبو الأرض" تحليلاً عميقاً للآثار النفسية المدمرة للاستعمار على الفرد المستعمر. يرى فانون أن الاستعمار يغرس في نفس المستعمر شعوراً بالدونية وكرهية الذات، مما يجعله يتبنى قيم المستعمر ولغته وثقافته. التحرر الحقيقي، بالنسبة لفانون، ليس مجرد طرد للمستعمر، بل هو عملية "تطهير" نفسي عنيفة لاستعادة الذات. وهنا يأتي دور المثقف والكاتب الوطني. ففي المرحلة الأولى من المقاومة، يحاكي الكاتب المستعمر النماذج الغربية، ثم في مرحلة ثانية، يغوص في ماضيه بحثاً عن الأصالة، وأخيراً، ينتج "أدباً قتالياً" أو "أدباً قومياً" يهدف إلى "إيقاظ الشعب وتعبئته". يقول فانون: "إن الأدب القومي، في هذه المرحلة، هو أدب قتال، لأنه يصوغ الوعي القومي ويعطيه شكلاً ويفتحه على آفاق جديدة." (3)

3. هومي بابا واستراتيجيات التخريب من الداخل:

طور هومي بابا مفاهيم أكثر تعقيداً لفهم العلاقة بين المستعمر والمستعمر. من خلال مفاهيم مثل "التهجين" و"المحاكاة الساخرة"، يرى بابا أن سلطة الخطاب الكولونيالي ليست مطلقة، بل يمكن تقويضها من الداخل. فعندما يطلب المستعمر من المستعمر أن "يحاكيه"، فإن هذه المحاكاة لا تكون كاملة أبداً، بل تكون دائماً نسخة مشوهة تكشف عن قلق السلطة. يقول بابا في كتابه "موقع الثقافة": "إن المحاكاة الساخرة تبرز في تلك الفجوة بين المظهر والواقع (...). حيث يتكرر الخطاب المهيمن ولكن بصورة مغايرة ومزعزعة" (4). الرواية الأفريقية، وخصوصاً تلك المكتوبة بلغة المستعمر، تستخدم هذه الاستراتيجية

ببراعة، حيث تتلبس شكل الرواية الغربية ولغتها لكنها تزرع فيها بذور الاختلاف الثقافي واللغوي، مما يخلق فضاءً هجيناً للمقاومة.

هذه الأطر النظرية تمنحنا العدسة المناسبة لرؤية الرواية الأفريقية ليس كمنتج أدبي فحسب، بل كفعل سياسي وممارسة ثقافية للمقاومة، تهدف إلى تفكيك سرديات الهيمنة وبناء سرديات بديلة للذات والتاريخ.

استراتيجيات السرد المقاوم في الرواية الأفريقية

لقد ابتكر الروائيون الأفارقة مجموعة من الاستراتيجيات السردية المتنوعة لمواجهة الإرث الكولونيالي. ويمكن تلخيص أبرز هذه الاستراتيجيات في المحاور التالية:

1. استعادة التاريخ: كتابة "السرد المضاد"

كانت أولى وأهم مهام الرواية الأفريقية هي دحض الأسطورة الكولونيالية القائلة بأن أفريقيا لم يكن لها تاريخ قبل وصول الأوروبيين. لقد عمل الروائيون كمؤرخين لشعوبهم، ينبشون في الماضي، ويعيدون بناء صورة المجتمعات الأفريقية التقليدية بكل تعقيداتها وغناها.

النموذج الأبرز: "الأشياء تتداعى" لتشينوا أتشيبي (1958)

تعتبر هذه الرواية البيان التأسيسي لأدب المقاومة الأفريقي. لقد كتبها أتشيبي كرد مباشر على الروايات الأوروبية التي صورت الأفارقة كهمج. تدور أحداث الرواية في مجتمع "الإيغبو" في نيجيريا، وتصور بدقة الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية لهذا المجتمع قبل وصول الرجل الأبيض. السرد في "الأشياء تتداعى" هو سرد هادئ وواثق، يستخدم تقنيات واقعية ليضفي مصداقية على العالم الذي يصوره. وعندما يصل المبشرون والمستعمرون في الجزء الثاني من الرواية، لا يكون وصولهم بداية للتاريخ، بل هو

انقطاع عنيف ومأساوي لتاريخ قائم بالفعل. يقول أنشيبني موضحاً هدفه: "إنني سأكون راضياً إذا استطاعت رواياتي، وخصوصاً تلك التي تدور أحداثها في الماضي، أن تعلم قرائي الأفارقة أن ماضيهم - مع كل عيوبه - لم يكن ليلاً طويلاً من الوحشية التي استخلصهم منها الأوروبيون" (5). إنها رواية تقول بوضوح: "لقد كان لدينا نظامنا الخاص، وقد دمرتموه".

2. المقاومة اللغوية: معضلة لغة المستعمر

شكلت اللغة ساحة الصراع الأكثر تعقيداً بالنسبة للكاتب الأفريقي. وقد أدت هذه المعضلة إلى ظهور رؤيتين متميزتين:

• رؤية تشينوا أنشيبني: "تطويع" لغة المستعمر:

دافع أنشيبني عن استخدام اللغة الإنجليزية، لكن ليس الإنجليزية الملكية، بل "إنجليزية جديدة"، يتم تطويعها وتطويرها لتكون قادرة على حمل ثقل التجربة الأفريقية. لقد قام بـ"أفرقة" اللغة الإنجليزية من خلال دمج الأمثال والحكم والأغاني بلغة الإيغبو. يقول أنشيبني: "أشعر أن اللغة الإنجليزية قادرة على حمل عبء تجربتي الأفريقية. ولكن عليها أن تكون إنجليزية جديدة، لا تزال على تواصل مع موطنها الأصلي ولكنها تغيرت لتتناسب محيطها الأفريقي الجديد" (6). وبهذا، يحول أنشيبني لغة الهيمنة إلى أداة للمقاومة.

• رؤية نغوي وا ثيونغو: القطيعة مع لغة المستعمر:

على النقيض تماماً، يمثل الروائي الكيني نغوي وا ثيونغو الموقف الأكثر جذرية. بعد أن كتب رواياته الأولى باللغة الإنجليزية، أعلن في كتابه "تصفية استعمار العقل" عن قراره بالتحول إلى لغته الأم، الغيكويو. يرى نغوي أن اللغة ليست مجرد أداة تواصل، بل هي حامل للثقافة

والذاكرة. والاستمرار في استخدام لغة المستعمر هو استمرار للعبودية العقلية. يصف نغوي اللغة بأنها السلاح الأكبر للاستعمار الثقافي: "كانت أكبر قبلة هي القبلة الثقافية. إن تأثير القبلة الثقافية هو إبادة إيمان الناس بأسمائهم، بلغاتهم، ببيئتهم، بترائهم من النضال... وفي نهاية المطاف، بأنفسهم.(7)"

3. إحياء الموروث الشفاهي: تحدي الشكل الروائي

لم تكن المقاومة موجهة فقط ضد مضمون الخطاب الكولونيالي، بل أيضًا ضد شكله. فالرواية كجنس أدبي غربي لها تقاليدها وبنيتها. وقد سعى العديد من الروائيين الأفارقة إلى كسر هذه القوالب الجاهزة من خلال دمج عناصر من التراث السردي الشفاهي الأفريقي. وكما يرى الناقد سعيد يقطين، فإن "استلهم التراث السردي القديم في الرواية الحديثة ليس مجرد عودة للماضي، بل هو توظيف بنيوي يهدف إلى خلق شكل روائي جديد يعبر عن خصوصية الهوية الثقافية"(8). لقد قاموا بتضمين الأساطير، والخرافات، والأمثال داخل النسيج الروائي، مما يؤكد وجود تقاليد سردية عريقة ويفتح النص على أبعاد أسطورية تتحدى الخطية الزمنية للرواية الغربية.

4. تشريح الذات المستعمرة: سيكولوجية المقاومة

إلى جانب استعادة التاريخ الجماعي، غاصت الرواية الأفريقية في أعماق النفس الفردية التي شكلها وشوهدا الصدام مع الغرب. لقد استكشفت بعمق شخصية المثقف الأفريقي الذي تعلم في مدارس المستعمر ثم عاد إلى وطنه ليجد نفسه ممزقاً بين عالمين.

النموذج الأبرز: "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح (1966)

تعتبر هذه الرواية السودانية تحفة فنية في تحليل العلاقة النفسية المعقدة والملتبسة بين الشرق والغرب. بطلها الغامض، مصطفى سعيد، يسافر إلى إنجلترا، ويتفوق أكاديميًا، ويصبح سلاحه هو إغواء النساء الإنجليزيات كشكل من أشكال الانتقام الرمزي من المستعمر. إنه يغزو "قلب الظلام" الأوروبي، ويعكس الصورة النمطية التي ألصقها الغرب بالشرق. يقول مصطفى سعيد في الرواية: "أنا لست عطيل، عطيل كان كذبة" (9). بهذه الجملة، هو يرفض الصورة النمطية، ولكنه في نفس الوقت، يقع أسيرًا للعبة الانتقام التي تدمره. السرد في الرواية مجزأ وغير خطي، يعكس التمزق النفسي للشخصيات. يرى الناقد فيصل دراج أن الرواية "تقدم نموذجًا للإنسان المأزوم الذي لا يجد ذاته في ماضيه ولا في حاضره، ويعيش غربة مزدوجة، غربة عن الآخر وعن الذات" (10). المقاومة هنا ليست في الانتصار البطولي، بل في فضح هذا المرض، في تشريح الذات المستعمرة بكل تناقضاتها، كخطوة أولى نحو الشفاء.

يتضح من خلال هذا التحليل أن السرد في الرواية الأفريقية لم يكن مجرد وسيلة ترفيه أو محاكاة فنية، بل كان أداة حيوية في معركة التحرر الشاملة. لقد تحولت الرواية إلى ساحة للمقاومة الرمزية، تم فيها تفكيك الخطاب الكولونيالي الذي سعى إلى محو تاريخ أفريقيا وتشويه هويتها، قطعة قطعة.

من خلال استراتيجيات سردية واعية، نجح الروائيون الأفارقة في تحقيق أهداف كبرى: لقد أعادوا كتابة التاريخ من منظور أفريقي، وخاضوا معركة اللغة، وقاموا بتحدي الشكل الروائي الغربي نفسه عبر دمج تقاليد السرد الشفاهي العريقة، وغاصوا في أعماق النفس الممزقة بفعل الاستعمار.

إن أعمال تشينوا أنتشيبى، ونغوي وا ثيونغو، والطيب صالح، وغيرهم من عمالقة الأدب الأفريقي، ليست مجرد روايات، بل هي "وثائق تأسيسية" لهوية ما بعد كولونيالية جديدة. إنها شهادة على أن استعادة الحق

في "الحكي" ورواية القصة الخاصة بالمرء هي جوهر الحرية الإنسانية. وكما يقول الروائي عبد الرحمن منيف، فإن الرواية في سياقات القهر "تصبح وسيلة للدفاع عن الذاكرة، وعن الحق في الوجود، وهي بذلك فعل مقاومة من الطراز الأول" (11). وهذا بالضبط ما فعلته الرواية الأفريقية، ولا تزال تفعله، في مواجهة أشكال الهيمنة القديمة والجديدة.

الهوامش والمراجع

- (1) تشينوا أنتشيببي، *الوطن تحت وطأة الماضي ومقالات أخرى*، ترجمة شكري مجاهد، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، 2017)، ص. 98.
- (2) إدوارد سعيد، *الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء*، ترجمة كمال أبو ديب، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981)، ص. 25.
- (3) فرانز فانون، *معذبو الأرض*، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، (بيروت: دار القلم، 1971)، ص. 182.
- (4) هو لا آبابا، *موقع الثقافة*، ترجمة ثائر ديب، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2004)، ص. 121.
- (5) تشينوا أنتشيببي، *الوطن تحت وطأة الماضي ومقالات أخرى*، مرجع سابق، ص. 45.
- (6) المرجع نفسه، ص. 67.
- (7) نغوي وا ثيونغو، *تصفية استعمار العقل: سياسة اللغة في الأدب الأفريقي*، ترجمة سعدي يوسف، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1991)، ص. 16.
- (8) سعيد يقطين، *الرواية والتراث السردي: من أجل وعي جديد بالتراث*، (الدار البيضاء: المركز الثقافي

العربي، 1992)، ص. 115.

(9) الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، (بيروت: دار العودة، 1969)، ص. 95.

(10) فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ: الأيديولوجيا والصورة في الرواية العربية الحديثة، (بيروت:

المركز الثقافي العربي، 1998)، ص. 205.

(11) عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى: هموم وآفاق الرواية العربية، (بيروت: المؤسسة العربية

للدراسات والنشر، 1992)، ص. 88.

قائمة المراجع

- أنشبي، تشينوا. الأشياء تتدعى. ترجمة عناد قصاب. دمشق: دار المدى، 2007.
- أنشبي، تشينوا. الوطن تحت وطأة الماضي ومقالات أخرى. ترجمة شكري مجاهد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2017.
- بابا، هو. الموقع الثقافي. ترجمة ثائر ديب. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2004.
- دراج، فيصل. الرواية وتأويل التاريخ: الأيديولوجيا والصورة في الرواية العربية الحديثة. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1998.
- سعيد، إدوارد. الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.
- صالح، الطيب. موسم الهجرة إلى الشمال. بيروت: دار العودة، 1969.
- فانون، فرانز. معذبو الأرض. ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. بيروت: دار القلم، 1971.

- منيف، عبد الرحمن .الكاتب والمنفى: هموم وآفاق الرواية العربية .بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1992.
- نغوي وا ثيونغو .تصفية استعمار العقل: سياسة اللغة في الأدب الأفريقي .ترجمة سعدي يوسف. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1991.
- يقطين، سعيد .الرواية والتراث السردي: من أجل وعي جديد بالتراث .الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1992.